

تيمات وقضايا الأدب الجزائري المعاصر

جمالية السرد في رواية ربح الجنوب لعبد الحميد هدوقة

Themes and issues of contemporary Algerian literature "The aesthetics of narrative in a novel :The south wind by Abdel Hamid Hadduka

جغدم تواتية

أد علي منصوري

تاريخ النشر: 2024/04/27	تاريخ القبول: 2024/01/29	تاريخ الإرسال: 2023/12/25
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص : قاومت الجزائر منذ أن وطأت أقدام الاحتلال الفرنسي أرضها الطاهرة أشكال القمع وصور الوحشية بالمقاومة المسلحة، وإلى جانب أزيز الرصاص المقاومة الثقافية والمتمثلة في الحركة الأدبية في المحرك كالرواية الجزائرية التي ولدت من أحشاء الكولونيالية وأعلنت عن ظهورها مع كمال الأدب الجزائري المعاصر، وكانت متنفسا لكل الجزائريين الذين مهدوا لها الأرضية بخطاب صادق.

استطاع الطاهر وطار "واحدا من جنود القلم من خلال روايته التي تحاكي أحداثها الوضع في فترة الثورة التحريرية ويمتد فيها الخطاب إلى ما بعد الكولونيالية أن يشكل سيفسء من الاستنابات داخل نصّ سردي استدعى فيه الأحداث الوطنية والسياسية والثقافية والدينية بفنية مشوقة ترقى لمصاف الأدب الجزائري المعاصر.

الكلمات المفتاحية: المقاومة الثقافية، الحركة الأدبية، ما بعد الكولونيالية، الرواية، جمالية السرد، الأدب الجزائري المعاصر.

Abstract:

Since the French occupation set foot on its pure land , Algeria has resisted various forms of oppression and images of brutality with armed resistance.

In addition to the sound of bullets , the cultural resistance represented by the literary movement is the engine and instigator, like the Algerian novel that was born from the bowles of colonialism and announced its emergence with the perfection of contemporary Algerian literature ,

« Tahir Watar » was able Through his algerian novel , whose events simulate the situation during the period of the liberation revolution and in which the discourse extends beyound colonialism,to form a mosaic of deduction within.

Key words Cultural resistance / post-colonial /literary movement /novel/narrative aesthetic/ conteporary Algerian literature.

المؤلف المرسل : elt.djourdem@univ-blida2.dz

مقدمة :

إنّ ثنائية الفنّ والحياة توحى بالعلاقة الوشيحة بينهما، فلا فنّ دون حياة ولا حياة دون فنّ، وها هو الأدب الذي مادته الخام اللغة يتصدّر هاته الفنون جميعا، في علاقاته بالحياة كلّها أو في بعض أجزائها.

فأضحت وظيفة الفنّ الأدبي بكلّ أنواعه لا تقتصر على الإمتاع فحسب، بل تجاوز هذا المنعطف ليصير ضرورة من ضرورات الحياة، ومقصدا من مقاصدها فأصبح الأديب مجاهدا في سبيل تحرير وطنه في ميدان الأدب، يقف جنبا إلى جنب مع الأبطال والثّوار، يزود عن وطنه ويسعى لأجل حريته، وما الأحداث إلّا فرصة أتاحت للأديب ليفجّر طاقاته فسخر الأدب لخدمة وطنه ومجتمعه.

وأدبنا الجزائري لم يكن بمنأى عمّا كان يحدث، فارتبط بالبيئات الاجتماعية والسياسية والثّقافية والتاريخية.

فلغة الأدب شعرا ونثرا وخطابا وكذا الأجناس الأدبية المتنوعة كالرواية والقصة والقصيدة والمقالة، قد دقت أبواب المجتمع وحملت قضايا وطموحاته وآلامه وآماله، وألّمت بحിثياته، والأدب الجزائري قديم ومتنوع نلمح فيه روح الإبداع والتميز من خلال أعمال أدبية راقية ارتقت به نحو العالمية، وقد ظلّ الأدب الجزائري متعلّقا بالحياة ينطلق منها ويعود إليها وقد ظلّ الأدب الجزائري متعلّقا بالحياة ينطلق منها ويعود إليها وقد ظلّ الأدب الجزائري متعلّقا بالحياة ينطلق منها ويعود إليها.

فلم يكن الأدب الجزائري يوما بمعزل عن سياّقه التاريخي مهما حاولت بعض نظريات الإيديولوجيا أن تفصله عن واقعه وخلفياته السياسية والفكرية والاقتصادية. فكلّ أدب لابد أن يرتبط بمرحلة زمنية معينة يعبر عن معطياتها بشكل من الأشكال، فقد عكس التراث الأدبي الجزائري تمسك الأمة الجزائرية منذ 1830 بأصالتها وأرضها ودفاعها عن هويّتها ولغتها ضدّ الغاشم المستعمر الفرنسي، وكان هذا الأدب نتيجة الوعي السياسي ووعي الأنا الوطني، ومن هنا يتبادر إلى أذهاننا إشكالية المداخلة في الشكل التالي:

ما روافد الأدب الجزائري المعاصر؟ كيف حملت الرواية أثقال الوضع السياسي الجزائري أثناء الحقبة الكولونيالية؟ وما الملامح الثّقافية الجزائرية في الخطاب الروائي بعد كولونيالي؟.

ما مدى إسهام الرواية في الحفاظ على الثوابت الوطنية وتربية النشء الصاعد؟

• ماهية ومفهوم الأدب الجزائري المعاصر :

إذا ما أردنا دراسة تاريخ أدب الجزائر المعاصر، لابدّ من وقفة عند الحركة الأدبية الجزائرية التي تعكس صورة الجزائر وتغطّي مختلف المشاكل التي مرّ بها الجزائريون تحت حكم المستعمر، الذي قضى على كلّ جميل

في الجزائر وكبدها خسائر بشرية ومادية وحق فكرية وثقافية، وزرع الشكّ والباطل في نفوس الجزائريين، أباد العلماء وأزاحهم من طريقه لأنّه يعلم بأنّ السلاح الفكري أشدّ وقعا وتأثيرا من السلاح في ميدان الشّرف.

حين نتحدث عن الأدب الجزائري، فإنّ حريّ بنا الإلمام بواقع الثقافة الجزائرية قبل 1925 ، فترة تفتّن فيها الغاشم الفرنسي من ممارسة الاضطهاد الرهيب وتجريد الشعب الجزائري من هويته الثقافية وإبداله بأخرى مسيحية غربية جديدة.

هي فترة انكماش ثقافي أشبه ما يكون بالغيوبة شعر فيها الجزائري بغربة حقيقية عن واقعه وصلت به لحدّ الإنكار، خاصة الانكسارات المعنوية التي عاشتها النخبة الطلائعية من مثقفي الجزائر، وامتدّت حتى أواخر القرن التاسع عشر، حينها بدأ الأمل يسري في العروق الجزائرية التي دقت ناقوس الخطر على الفرنسيين.

ولكنّ فنّ دافع، ولعلّ الثورة الجزائرية تعتبر الدافع الأول لبلورة الوعي الوطني والثقافي والسياسي والفكري الذي زاد لهيبه بعد مشاركة الجزائريين في الحرب العالمية الثانية، وظهور أعلام التّهضة في المشرق العربي مع بدايات النصف الأول من القرن التاسع عشر التي استلهمت التراث العربي المشترك في أزهى عصوره، وأحيت أمهات الكتب، وانفتحت على الثقافات الأوروبية.

وعي فكري وطني وفني بدأ بسيطا متواضعا خطى خطوات متناقلة في منتصف القرن التاسع عشر ولكن سرعان ما نما وازدهر في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بعد مخاض عسير تمكّنت الجزائر من إنجاب أقلام استطاعت أن تخرجها من قوقعة التّخلف وتساير ركب أدباء العرب والغرب، فإلى جانب أزيز المدافع والرصاص وصوت البارود، نجد حبر الأقلام والأوراق، منسوجا بأنامل جنود الأقلام، نجد أدبا جزائريا أجج للثورة هو أدب النّضال تباينت ألوانه من : شعر ومقال وقصة ورواية.

وهنا يمكن أن نقول إنّ البدايات الحقيقية للتّهضة الأدبية الجزائرية ارتبطت مع الحركة الإصلاحية. وعنها يقول شيخنا ابن باديس : "الحقيقة التي لا يعلمها كلّ أحد أنّ هذه الحركة الأدبية ظهرت واضحة يوم بروز جريد "المنتقد" في يوم ذاك عرفت الجزائر من أبنائها كتابا وشعراء ما كانت تعرفهم من قبل."

فما مفهوم التّهضة الأدبية ؟

التّهضة لغة : مشتقة من الفعل " نهض "أي البراح من الموضع والقيّام منه، ونقول : نهض، ينهض، نهضا، انتهض أي قام.

والتّهضة هي الطّاقة والقوّة ، والتّهضة بالشّيء القدرة على النهوض، وتناهض القوم أي أسرع كلّ فريق إلى مقاومة خصمه.

اصطلاحاً: "هي حركة إحياء التراث القديم، وبمعناها الواسع فهي عبارة عن ذلك التطور القديم في كلّ الفنون والآداب والعلوم، وطرق التعبير والدّراسات، وما صاحب ذلك من تغيير في أسس الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية".

الأدبية: مصدر صناعي مكون من شقين: الأدب والألحقة، وهو لفظ وليد النّقد الحديث، يطلق على ما به يتحول الكلام من من خطاب عادي إلى ممارسة فنية إبداعية، ويختص هذا المصطلح أحياناً بصبغة علمية، لهذا هو إرهاب معرفتي إنسانية موضوعها "علم الأدب"، ومدار هذا العلم الافتراضي تحديد هوية الخطاب الأدبي في بنيته ووظيفته، ممّا يبرز القوانين المجردة التي تشترك فيها كلّ الآثار الأدبية، بهذا تكون نسبة الأدبية إلى الأدب كنسبة اللغة إلى الكلام عند دي سوسير.

والنهضة الأدبية هي التجديد والتطوير الذي شهده الأدب العربي من نثر وفرعه، وعلى الشعر وأغراضه.

الأدب الجزائري المعاصر: هو كلّ منظوم ومنثور أنتجه أدباء الجزائر منذ نشوء الدولة الجزائرية الحديثة إلى يومنا هذا. فالأدب الجزائري متفرد بكلّ ما يحويه من خصوصية فكرية وثقافية وأدبية، فرضها الموقع الاستراتيجي للجزائر في حدّ ذاته سواء في امتداده القومي العربي أو كونه يطلّ على الدول الفرانكفونية

• أقسام الأدب الجزائري: انقسم الأدب الجزائري إلى قسمين: أدب جزائري حديث وأدب جزائري معاصر.

• أدب جزائري حديث:

نعني به كلّ ما هو حديث الوجود زمنياً، جاء اصطلاحاً من اللفظة الأجنبية modernisme وهو مصطلح حديث يدلّ على الجديد والميل إلى المعاصرة وليس مذهباً معيناً، ولكنّ اتجاه جديد مهمته مصارعة القديم باسم الجديد، والتحرر من أسر القوالب والمضامين التي مضى عليها الزّمان

2.2 أدب جزائري معاصر:

الأدب الجزائري المعاصر مرحلة جديدة في مسار التطور الأدبي الجزائري والعربي بشكل عام، حيث نلاحظ له تطورا على الصعيدين الموضوعي والفني تبعاً للتغير الحاصل في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، بناء على التغيرات التي طرأت في الحياة السياسية أواخر الثمانينات "إنّ كلّ أدب جزائري أنتج خلال المرحلة الممتدة من أواخر القرن العشرين إلى يومنا هذا يعدّ أدباً جزائرياً معاصراً ومن أهمّ رواده نذكر الطاهر وطار، واسيني الأعرج، مستغانمي، رشيد بوجدر، ربيعة جليطي، طاهر يحيى، أمين الزّواي".

• نهضة الجزائر شعراً ونثراً:

فكرة الإبداع لا تقبل الثواب مطلقاً، فقط سارت الأوضاع المزرية للجزائر على كافة الأصعدة مسارا إيجابياً، واستطاعت أن تشقّ لنفسها طريقاً قضت فيه على مختلف تقلبات العصر آنذاك، فنتج عنه ثورة كبيرة في الحياة الثقافية والأدبية، ونتج عنه قلقاً إبداعياً استثمره العديد من مبدعي الجزائر في تجاربهم الفنية.

فالأدب سيولة نصية تنتظم في منظومات تسمى الأجناس الأدبية، وهو مراوغ بارع يحدثنا عن الحياة وينشئ حياته إنشاءً.

الأدب ترجمان الواقع والمأمول يعبر به الأديب عن خلجات النفس، وأخرج به القضية الجزائرية إلى العالمية ووضع صورة الجزائري أمام العالم في ظل سياسة استعمارية وحشية قائمة على الحرق والتعذيب والتنكيل.

وهكذا الأدب يجدد نفسه ويبني نفسه من خلال أشكال تعبيرية تضرب على إيقاع قضايا العصر وتعزف على أوتاره، والأدب الحديث والمعاصر ليس شعرا فقط بل ونثرا.

• الأشكال الفنية في الأدب الجزائري المعاصر: لاشك أن الساحة الإبداعية الجزائرية الحديثة

والمعاصرة قد زحرت بفنون إبداعية متنوعة، هيأت أرضيتها الظروف السياسية والاجتماعية الحاصلة، وحمل لواءها مجموعة من أدباء الجزائر حاولوا في ذلك توشيح قوالبها بالصّور والأخيلة المتفردة على مستوى الشّعـر والنثر.

• حركة الشّعـر: استيقظ في نفوس الشعراء مشاعر نفسية ووطنية واجتماعية

وسياسية عكسوها في أشعارهم فاصطبغ بعضها بملامح التجديد وبعضها الآخر بالعودة للتراث العربي في بعث روح التحرر ومواجهة الغزو الثقافي والتشبث تراب الوطن والذي حمل مشعله الأمير عبد القادر في الجزائر ومحمود سامي البارودي في المشرق العربي، واقتصر الشّعـر على الألوان التالية:

• شعر الإصلاح والنّضال: تبنّى دور الإصلاح في جميع الميادين، وواصل المسيرة بعدهم جمعية العلماء المسلمين، فأصبحت قضية الوطن فوق كل اعتبار.

• الشعر الوجداني: اهتمّ بالوجدان والمشاعر الداخلية والإحساس بالحرية والوطن والطبيعة والتّوق للأمل.

• الشعر الثوري: عانق الشعر الجزائري موضوعات الثورة قبل اندلاعها وقصيدة رمضان حمود" نلوم الدهر"أصدق مثال على ذلك. ومفدي زكريا الذي سبّل فكره وعلمه لتنبيه المجتمع الجزائري ولم الشّمل. وقد ظلّ النص الشعري لمرحلة السبعينيات بين مدّ البعد الفئّي وجزر الانتماء الإيديولوجي، فتحمّس بعض الشعراء للاشتراكية والمغالاة.

• حركة النّثر: تطورت أساليب الكتابة النّثرية وابتعدت عن المحسنات البديعية المتكلفة والخيال المخلّ، فانبثقت فنون نثرية حديثة منها:

• فنّ المقال: فنّ غربي أصيل دخل للأدب العربي يختص بجمهور عريض من الناس، ارتبط ظهوره بظهور الصحافة.

- القصّة القصيرة: فنّ جديد عرفه الأدب العربي عن طريق الترجمة والمحاكاة ثم التأليف.
- المسرحية: فنّ غربي أصيل لم نعهده في أدبنا العربيّ قبل العصر الحديث التي يعود نسبها لعصر نابليون بونابرت في مصر.
- القصّة الطويلة (الرواية): (ليست فنّا غريبا محضاً بل كانت للعرب في العصر الجاهلي تحكي أيامهم ووقائعهم، لكن فنّ القصّة بمعناه الحديث نقل من أوروبا نهاية القرن 19 بفعل نشاط الترجمة.
- قضايا الأدب الجزائري المعاصر: اختلف حولها المؤرخون لاختلاف الرؤية التاريخية للأدب، باعتبار الأدب شاهد عيان على تاريخ الأمة الأدبي والثقافي والاجتماعي، ولعلّ توجه المؤلف إلى اعتبار الأدب جزءاً من الثقافة يصبّ في هذا الاتجاه التجديدي الذي يصنّف الأعمال الأدبية في سياق أكبر هو السياق الثقافي، فنجدّه يناقش العلاقات المنظّمة للأدبي والثقافي: "فالخطاب حول الأدب نقدياً كان أو تاريخياً هو أيضاً خطاب داخل المجتمع، وداخل المؤسسة الاجتماعية، وأجهزة الدولة."
- فسار الأدب الجزائري جنباً لجنب مع المسار الحياتي للشعب الجزائري، وألقى بظلاله على قضايا الحياة الاجتماعية والسياسية وحتى التراث الثقافي.
- هي قضايا وجدت في الأدب الجزائري المعاصر الحزن الآمن والحسن المنيع والعرض المساعد، فكان لزاماً على أدباء الجزائر مصاحبة هذا الحدث الكبير وسلّ أقلامهم كترياق تم إخراجهم من سمّ المستدمر، فالقلم والقرطاس أشدّ وقعا من وقع الطبول ونصل السيوف، هي فسحة جمالية تتلاقى فيها عطاءات الوجدان، فتلتحم إلى تجارب فنية ناضجة، فقدمت نتاجاً نقف اليوم أمامه موقف إجلال وإكبار أمام حمل هاته التجارب لوظيفتين في آن واحد وظيفة التّضال ووظيفة الإبداع. فالأديب قد وصل إلى درجة الوعي والإحساس الإنساني بقضايا مجتمعه الذي هو جزء لا يتجزأ منه، سخر قلمه لخدمتها إلى حدّ إنكار الذات نتيجة شعوره بالحرية المسؤولة وهذا إن دلّ على شيء فيدلّ على قضية الالتزام في الأدب الجزائري المعاصر والتي انضوت تحتها قضايا مختلفة لعلّ أبرزها ما يلي:
- الوطن: شغلت تيمة الوطن حيزاً هاماً في الأدب الجزائري المعاصر وزادت حدّة الاهتمام به بعد هجرة ونفي الأدباء العرب إلى البلدان الأوروبية، " فالوطن فكرة غافية لا يوقظها سوى الشعراء بالتحنن والغناء." فيقول علي ملاحي: نحن اليتامى... والوطن في كف ساداتنا وثن . أمّا عن مفدي زكرياء فأبدع في إلبادته لغة وإيقاعاً: جزائرياً قلعة الثائرين ويا قصّة الخلد والخالدين.
- الحرب: تجلّت معالم الحرب في الأدب الجزائري المعاصر، فهو مترع بلهب الحرب حدّ الثمالة، يتجلى فيه الرّفص والتّحدي لخوض غمار حرب الشرف، فيها إعلان اعتاق الشعب من برائن فرنسا.

حرب رشاشها الشعر ورصاصها القاتل أفاظها الساخرة من العدو. فيقول سليمان صلاح الدين: أي بني .. هكذا يفعل أبناء الجزائر يا صلاح الدين في أرض الجزائر

سر إلى الميدان مأمون الخطى * وتطوّع في صفوف الجيش ناثراً.

• الهوية: لقد حَزَّ في نفوس الأدباء تلك الخبرة الكولونيالية التي تمخّضت عنها خطابات مضادة، وأصبحت ظاهرة الهوية مطروقة في جميع الميادين، ومن القضايا الشائكة، فلقد عمل المستعمر على طمس الهوية العربية والإسلامية وغرس الهوية والقيم الفرنسية فأفصح الأديب الجزائري عن نزاهة الهوية الوطنية والثقافية والثورية، وفي الرفض القاطع للإدماج، ورفض أنّ الجزائر فرنسية، وفي الصّراع بين المرأة والرجل الجزائري في التحاق المرأة به للمشاركة في صفوف الثورة من أجل محاربة الوحوش الفرنسية. يقول: مفدي زكرياء عصابة الإدماج مهلا ريديا * حسبك اليوم خدعة واحتيالا.

• العروبة وروح الانتماء: الجزائر صارت ممزقة الأوصال تائهة مشتتة في جرح دامي ناجم عن تجريدتها من حقوقها من قبل الغاشم، فتمكن المستعمر من بسط جذوره والتغلغل، فيرد محمد العيد آل خليفة:

إنّ العروبة أمنا الكبرى التي * في الأمهات نظيرها لا يوجد.

هذا وقد تناول الأدب الجزائري المعاصر قضايا أخرى ك*: الصّراع بين الأنا والآخر القائم على التصادم والصّراع*. الدين والتراث * الحركة النسوية والمرأة في المجتمع * اللغة * قضايا اجتماعية من رحم المجتمع كالأمية والجهل والفقر*. الأدب المكتوب باللغة الفرنسية.

• تجليات الخطاب الاستعماري في السرد وفي الرواية كجنس أدبي: الكتابة تضع نفسها في سياق تخيل

معين، تصور مختلف القضايا عبر اللغة التي تثمر نصّا يملك القدرة على كشف تلك الرّهانات ذات

العلاقة بالإيديولوجيا والثقافة وهوية الآخر، ولعلّ السّرديات الروائية الأكثر والأصدق تعبيرا عنها. فقد أجمع الكثيرون على نجاح الرواية في الظفر بالمكانة الأولى في الآداب العالمية عامة وفي الأدب العربي الجزائري خاصة، ويُعزى ذلك إلى قدرتها الفائقة على تطوير وسائل السّرد وقدرتها على تمثيل المرجعيات الثقافية والنفسية والاجتماعية، ومساهمتها في الحطّ من قيمة الخطابات الإمبريالية الكولونيالية ومسح الوجود الاستعماري بالرد على خطاباته الزائفة بسرد مضاد يقوّض عملها ما جعلها تتفوق بجدارة على مختلف الأجناس الأدبية الأخرى.

وقد تمّ التركيز على السّرد كمكوّن أساسي للرواية وأكثر العناصر قيمة فيها وأقوى المؤثرات المنشأة للدلالة عنها، باعتباره وقودا لها وقناة تمرير موضوع الرواية المطروح والذي دار حول مخلفات المستعمر وتدايعاته وشدّ الجمهور خاصة إذا كان ذا مصداقية في نقل الصّورة عن طريق ربط الواقع بالخيال في قالب فيّ يتسم بالفنية والانسجام والانفعالية والإيحائية ليصبح السّرد في الرواية معلما من معالم الحداثة العربية المعاصرة.

وامتدت جذور تجليات الاستعمار في الرواية الجزائرية إلى ما بعد فترة الكولونيالية وما بعد الاستقلال في عصر ما بعد الحداثة المرتبطتان ببعضهما ارتباطا وثيقا، وسنتعرف في قراءة ابستمولوجية على أنموذج الرواية الجزائرية في الجزائر الفتية، مع: "ريح الجنوب لعبد الحميد هدوقة".

الجانب التطبيقي: جمالية السرد في الرواية الجزائرية "رواية ربح الجنوب لعبد الحميد هدوقة".

• الرواية الجزائرية: ظلت الرواية العربية لفترة طويلة تعاني من التهميش وعد الاهتمام منذ نشأتها،

وظهرت الحاجة إلى الرواية في العصر الحديث نتيجة إدراك الطبقات الوسطى اغترابها في واقع اجتماعي تحرّكه الإقطاعات، أما عن روايتنا الجزائرية وهي موضوع بحثي فقد اختلف مسارها عن أقرانها من الوطن العربي لما عاشته من ظروف قاهرة استعمارية حاولت طمس الهوية الجزائرية، فأفرز هذا الوضع كتابا باللغة الفرنسية فكانت الرواية المكتوبة بالفرنسية سابقة العهد تاريخيا بالنسبة لنظيرتها بالعربية. وكان ظهور أول رواية جزائرية باللغة العربية بعد أحداث 08 ماي 1945 لأحمد رضا حوحو "عادة أم القرى"، أمّا عن الولادة الحقيقية للرواية الجزائرية فيعود ميلادها لفترة السبعينيات تخطّت فيها السطحية وارتدت ثوب النضج والكمال مع عبد الحميد هدوقة في ربح الجنوب 1971، وأغلب روايات هاته المرحلة تناولت موضوع الثورة بشكل مباشر أو بالإشارة إلى بعض الموضوعات المتفرعة عنه كالهجرة، الغربية ...

والرواية الجزائرية جنس هجين متفتح على الأجناس الأخرى، تتحكم فيها مرجعيات وحمولات إيديولوجية، استطاعت في ظرف وجيز معانقة فضاءات أوسع للإبداع الخلاق والمتميز والانفتاح على المتخيّل السردى وملاحقة مظاهر التمثيل السردى للأنساق الثقافية، وهكذا ارتوت أرض الرواية بماء السرد لأنّه لا ينضب.

فالمسردية إلى كونها نموذج أدبي فدّ يعبر عن تلاقح الأجناس الأدبية.

• التعريف بعبد الحميد هدوقة: هو "من أوائل المؤسسين الفعليين للرواية الجزائرية باللغة العربية"،

ومن أوائل الكتاب الذين وظفوا أدبهم للتعبير عن حرب التحرير، ولد سنة 1929 م بالمنصورة ولاية برج بوعريّج، قضى طفولته في الريف الذي ترك له أثارا على كتاباته، أكمل تعليم الابتدائي وسافر إلى فرنسا ثم تونس ودرس بجامع الزيتونة أربع سنوات قضاه في دراسة الأدب، عاد للجزائر 1954 م وعمل على تدريس الأدب أين لاحقته السلطات الاستعمارية إلى أن هرب لفرنسا، كتب باللغة العربية ومع فجر الاستقلال عاد لأرض الوطن ليتابع كتابته في القصة والرواية. من أعماله: الجزائر بين الأمس واليوم 1959، ربح الجنوب 1970، غدا يوم جديد. 1992

• ملخص الرواية: سعى الروائي "عبد الحميد هدوقة" إلى تصوير الواقع الاجتماعي

بتناقضاتها المختلفة، فكانت ربح الجنوب مرآة عاكسة للواقع، فلم يصوّره فوتوغرافيا، بل صاغ أحداثه ووقائع صياغة فنيّة جديدة بناها على الصّراع الأيديولوجي وكشف معاناة الطبقة الفقيرة بسبب امتداد نتائج الحقبة الكولونيالية.

نشأت الرواية في فترة كان الحديث السياسي جاريا عن الثورة الزراعية فأُنجزها في 05 نوفمبر 1971م تزكية للخطاب السياسي الذي يلوح بأمال واسعة للخروج بالريف من عزلته ورفع أشكال الاستغلال للإنسان فُدشن الرئيس هواري بومدين 1971 أول تعاونية للثورة الزراعية في خميس مليانة، فراقت فكرة المشروع هدوقة للخروج بالريف من التّخلف.

تبدأ رواية ربح الجنوب صباح الجمعة وهو يوم السّوق، يومها يستعد عبد بن القاضي ليذهب مع ابنه عبد القادر، وهو يقف بالقرب من المنزل يفكر في أرضه وقطيع الأغنام بقيادة الراعي رابح، وصدّره يختنق ضيقا يؤرقه بسبب ما انتشر من شائعات منذ صدور قرارات متعلقة بالتسيير الذاتي حول الإصلاح الزراعي، ثمّ خطرت بباله فكرة بعثت السرور في نفسه حين نظر من الخارج إلى غرفة ابنته نفيسة، يتلخص مضمونها في تزويج ابنته إلى مالك شيخ البلدية والذي يقوم بتأميم الأراضي، في ذلك الوقت كانت نفيسة داخل غرفتها تعاني الضيق والشّعور بالضجر وتقول أكاد أتفجّر، وفجأة تهدأ نفيسة من حالة الاضطراب، حين تسمع صوت أنغام حزينة كان يعزفها الراعي رابح، فتطرب ولا يخرجها من ذلك إلّا صوت العجوز رحمة منادية على أخيها عبد القادر من بعيد، كي تذهب مع والدته خيرة إلى المقبرة، بعد أيام تحتفل القرية بتدشين مقبرة لأبناء الشهداء الذين سقطوا أيام حرب التحرير فيستقبل عابد بن القاضي أهل القرية في بيته رغبة منه في التأثير على مالك وإعادة ربط ما بينهما من صلات قديمة فمالك كان خطيب زليخة أخت نفيسة والتي استشهدت أيام الثورة، حين أعدّ مالك ورفاقه من المجاهدين لغما كان من المفترض أن يستهدف قطارا عسكريا، لكنّه خطأ استهدف قطارا مدنيا كانت زليخة من ركابه، ممّا أثار غيظ ابن القاضي فوشى بالمجموعة لقوات الاحتلال فأثر ذلك في نفس مالك وأصبح يتهرب منه، وفي هذا اليوم يوم الاحتفال يدعو عابد بن القاضي مالكا لرؤية زوجته خيرة، وعندما يدخل الغرفة ما إن يقع نظره على نفيسة حتى يبهت لما رأى، ويسعى عابد بن القاضي لإشاعة خبر خطوبة مالك لابنته نفيسة على الرغم من تحفظ مالك، فتعلن خيرة الخير لابنتها نفيسة التي ترفضه بشدّة لأنّها لا ترغب بالبقاء في القرية كما أنها لا تريد الزواج منه لأنّه يكبرها سنّا فيصّر الأب على قراره وتفشل في صدّه وتستنجد بخالتها المقيمة بالجزائر العاصمة فتكتب لها رسالة وتطلب من رابح الرعي إيصالها للقرية المركزية ويضعها في البريد وهو يتذكر كلمتها السابقة المؤلمة أيها الراعي القدر، وأخيرا تقرر الفرار كحلّ نهائي لمشكلتها وتختار يوم الجمعة لتنفيذ خطتها فوجهة الرجال إلى السوق والنساء إلى المقبرة، تلوذ بالفرار إلى طريق غابي أين يلدغها ثعبان يغى عليها يجدها الراعي رابح يعود بها إلى بيت أمّ البكماء فيصل الخبر لوالدها الذي يأتي مشهرا موسى البوسعادي ويذبح رابح وتسرع أمّه إلى فأس تضربه بها فتتصرف الأمّ مسعفة ابنتها ونفيسة مسعفة أباهما وهكذا باءت خطتها بالفشل في الهرب.

• جمالية البناء السردى وآليات القراءة والتلقي:

إنّ هذا الحراك الأدبي لم يكن بتاتا بمعزل عن الحراك النقدي، فتدشين عملية السرد وتنظيم تمصّلات الخطاب وتجزئة العمل الروائي إلى ما يقتضيه من فصول وتقديم الشخصيات تقديمًا يراعى فيه بناء الأحداث هي من أهمّ المهام التي وُكّلت إلى الراوي، فجعل من السرد ثمرة أسّس بها لأفكار ناضجة سار فيها بثبات منذ بدايتها كرواية كلاسيكية عمادها بطل واحد ولغة واحدة عكست الصراع الإيديولوجي بين الشخصيات لتنتقل إلى الاهتمام بالمجتمع وما يموج فيه من مشاكل وأزمات وبالتالي عكست الاتجاه الواقعي في الأدب، إضافة إلى جملة الأنساق الثقافية المضمرّة وما حملته من بنى عميقة شدّت بناء السرد الحكائي فجاءت حبلً بالرموز الإبداعية تداخل فيها السياسي بالتاريخي والاجتماعي والديني، وما تتجه إليه الرواية نحو إخبار المتلقي الذي يمثل فحوى الإخبار في ضوء إدخال معطيات جديدة تساعد في عملية التأويل واتساع فهمه من خلال الأفعال الإرجاعية في ذهن القارئ إزاء ما تثيره الرواية من إحساس جمالي وبلورة المعنى

• القارئ المشارك في إنتاج المعنى: أي منح الرواية سمة التلاؤم فرضاً أنّ الرواية فجوات وفضائيات بيضاء تملئ من طرف قارئها ويفسح السرد أمام مخيلته مجالاً للمشاركة، كقول الراوي على لسان "نفيسة": "لا أستطيع أن أتزوج الآن...دروسي، حياتي هذه.. فراغات سيطرت على الرواية موجهة للقارئ ليتدبرها ويصل إلى مقاصدها.

• الرؤية الدلالية للعنوان "ريح الجنوب": "أهمّ العتبات النصّية الموازية المحيطة بالنصّ الرئيسي "يسهم في توضيح دلالات النص واستكشاف معانيه الظاهرة والخفية"، يشكّل طاقة انتباهية وإخبارية عن مقصدية الكاتب، فهو بنية سطحية تحيل للبنية العميقة الراسية في عمق النص تستدرج القارئ والتي تدلّ على أنّ ريح ساخنة قادمة من الجنوب أي القبلي أو الشهبلي تهبّ من جهة الصحراء فتأتي بعواقب وخيمة وخراب ودمار وعذاب تطفئ قناديل البترول ومدلولها يقارب القرآن الكريم وتعني النّعمة فيقول: "تحركت الريح، وأخذ دويها يتصارع بين جبال القرية، فإذا الأرض المقمرة تتلحف بلحاف الغبار."

• جمالية السرد في الإيقاع الروائي: يبني الإيقاع في الرواية مجال الأمانة والأزمات والأحداث وكذا الشخصيات فهو يشكّل إيقاعاً هندسياً يبلور مغزى ومضمون الرواية.

• البناء السردى الحكائي للأحداث: رسم "عبد الحميد هدوقة" رسم بجمالية كلماته أحداثاً تؤرّخ لمرحلة

حساسة من تاريخ الجزائر استلهم فيها فوارق العمل الإبداعي الجامع ركّز فيها على صورة الوطن والمرأة ليستشعر بها وعي الجمهور والإشارة إلى الصدمات الحداثيّة التي ارتطم بها المجتمع الجزائري كأفكار متحوّلة وتحديات مصيرية فأنّتجت توترات معاصرة بين ثنائيات منها: الأنا والآخر، الرجعية والتقدمية، المحافظة والتحديث، التقليد والتجديد، الأصالة والحداثة.

وهذا ما طرحه عبد الحميد في روايته قضية المرأة ومكانتها في المجتمع الجزائري وعلاقتها بالهوية الجزائرية من منطلق تغيرات ثقافة المجتمع الجزائري في فترة ما بعد الكولونيالية. فهل التمسك بالقيم الأصيلة هو رفض للحدثة؟

• الصّراع الإيديولوجي في الرواية: وجّه ابن هدوقة عدسة الكاميرا صوب الواقع الاجتماعي بتناقضاته

المختلفة اهتم بالطبقة الإقطاعية التي هي من صنع المستعمر وفرض وحدة العمل ووحدة الفكر لتبنيّه الواقعية الاشتراكية، وصوّر بصدق بملامح اجتماعية واقعية ومشاعر كره لفضح البيروقراطيين في قالب فيّ جذاب فيقول على لسان نفيسة للعجوز رحمة: "كم مضى على وفاة خالي الأخضر يا خالة" ترد: مات في عام البون (تقسيط بيع المواد الغذائية). (وسار بديناميكية كلّها تفاؤل وحياة وضوء وهي من سمات مذهبه الواقعي الاشتراكي فيقول: "الثورة المسلحة حررتنا من الاستعمار ولم تحررنا من الأوهام فيجب القيام بثورة أخرى لكن من يقوم بها؟ المدرسة وحدها لا تكفي".

• صراع الشّخصيات : استند ابن هدوقة على عصا السرد الفني ليرجم إبداع الذات الفنية كلّ بخلفياتها وتصوّراتها فشخصية ابن القاضي أي الأب الشخصية الانتهازية الأنانية التي أظهرت تعاطفا كاذبا مع الثورة ولا يهتم سوى بمصالحه الشخصية ولو على حساب ابنته وسعادتها.

الأمّ خيرة: رمز المرأة البسيطة العاملة طوال الوقت لا نصيب لها سوى الدموع تخض لسيطرة زوجها

الفتاة نفيسة: طالبة جامعية رمز الوطن المستقل حديثا، المتّمردة الحاملة للواء الثورية ضدّ الإقطاع وهيمنة الرّجل، وقعت بين نارين بين رغبات شخصية مالك ورغبات أبيها الطّماع، تصارع واقعين واقع ريفي متخلف بتقاليده وواقع حضاري برؤاه وأماله ثم ينتصر الواقع الأوّل، عاشت صراعات حادة من وقوفها في وجه والدها رافضة قرار تزويجها بمالك فتقول: كل الطلبة يفرحون بعطلتهم إلّا أنا فقدعدت إلى منفى " وسخريتها من أمّها الحنون التي تطلب من أن تتعلّم طهي طعام الرّيف وإعداد القهوة وطردها الراعي طردا مريرا بعد محاولته الاعتداء عليها ونقاشها الحاد مع العجوز رحمة وحكمها على جنس الرجال بالجهالة فهي ثورة على الظلم ورمز الولادة الجديدة

العجوز رحمة: ذكرى الثورة بطلة كافحت في صمت، أمّا مالك فهو شيخ البلدية : المناضل الجاد يطمح للتغيير لكن العين بصيرة واليد قصيرة رمز الوفاء وأنكار الذات في سبيل الآخر.

• البعد الأنثروبولوجي لسلطة الدين : بكلّ تأني ورتابة يثبت ابن هدوقة دور الدين في الضبط الاجتماعي وتجلياته في المقاومة الثقافية ولا سبيل لاختراق مقومات الجائر والتشكيك في مبادئها

وهويتها ودينها فتقول الأمّ لابنتها نفيسة " قومي..اغسلي وجهك واطردي عنك الوسواس والهواجس يا بنيقي..لو كنت تصلين ما شعرت بهذا الضيق. "قول نستشف منه المثل وعدم الاعتراض فتضييع الصلاة أمر مرفوض.

. خاتمة:

وهكذا تلاق السرد مع الرواية كترجمان للواقع بمسراته ومطبّاته وكان بطايرتها شحنت وارتقت بالأحداث فكان الإبداع والجنون في حضرة الزمن اللامتناهي فتح أفق القراءة على مصرعيه ومررّ رسائل بغرض نشر وعي فنّ الرواية بخطورة الاستعمار الذهني والتمسك بالوطن والهوية التي هي الحجر الأساس في بقاء المجتمعات الأساسية والهوية تعني الثقافة والدين واللغة والوطن.

النتائج المستخلصة:

- . رواية ربح الجنوب تساوت مع النص واختصرت دلالاته وأرسلت رسالة يتبادل أطرافها كلّ من القارئ والمبدع.
- . كشف لنا ابن هدوقة المرجعيات الثقافية والتاريخية والسياسية وسخر طاقته المعرفية والفكرية مركزاً على القيم الإنسانية فروايته رؤية ثاقبة للإنسان الذي يولد من رحم المعاناة ويواصل المسار.
- . أفصح ابن هدوقة عن فنّيته في ترك قارئه يتصوّر النهايات ويفكر معه ويشاركه إبداعه فطغى على النص السردى صوت واحد.
- . الرواية قناع سردي أصلت لمجريات الثورة وأحداثها وامتدت إلى ما بعد الحادثة أو ما بعد الكولونيالية لإيقاظ الفكر الجزائري وتوعيته بأبعاده المؤثرة في ظل التعدديات و الازدوجيات.
- . الأدب قراءة للحياة والقراءة حياة في رحاب الأدب.